

الآمل والمأمول

الجاحظ

المقدمة

قال الباحث: من تركيب الإنسان استفراغ الحرص مدى لبه، واستيلاء الأمانى على خواطره، فمقصر في الارتداد، حائد عن مذهب الصواب، عاجز في مذهبه، ظافر بأقصى مناه. ومجد في الدؤوب، متحررٍ قصد الحجة، مستأهل فوق تأميله الذي في طلبته، مع أنه وإن كان موضع الرتع درك المنى، فتحري الصواب أولى بذى النهى، والمجد في التماس ما هو به، أعذر من التجافي عما إن فاته قعد به عن مرتبة أهل الفضل ودرجة ذوي المروعة.

والكاتب وإن لم يكن في عمل يتقلده ومع صاحب يكتب له فغير خالٍ من حاجة تبدو له عند صديقه، وطلبية تكون له عند خليفه، ولا بد أيضاً من أن يكون في بعض الأحوال مسؤولاً وفي بعضها معذوراً. فإن هو لم يأنف بتسبب المسألة والإفصاح عن البغية والمطالبة بالعدة والاعتذار عند المنع، والحث على الجهد، والنهي عن الإلحاف، ولم يدر كيف يستطيع الموعد ويعذر المجتهد، ويذم المستندم، كان غير مميز من العامة ولا مستحق اسم الكتابة. فتكلفت ما على الآمل والمأمول، وما في الآمل من الذلة والحيرة، ليقنتدي الكاتب في ذلك بما في الأبواب من المعاني، فيكون كالساري بدليل والحادي على مثال. وبالله أعتصم واسترشد.

على الآمل بل على الناس أجمعين صون الوجه عن المسألة ورجاء الله عز وجل واليأس من الناس، فإن اضطر إلى ذلك فالإجمال في الطلب والتلطف للمأمول بعد الوسيلة بدعاء يبعثه على الإسعاف، فإن تأخرت الحاجة فالتؤدة والرفق وتجنب العجلة والخرق، ثم الحث في الطلب والمخاطرة وترك التسويف والتواني، ثم حسن الاقتضاء، ثم استبطاء المواعيد، ثم الإلحاح والوعيد. وليس بعدهما إلا الشكر إن أسعف، ونشر صنيعته إن أولى، والحمد والمدح إن أنعم. وعليه أن لا يلوم مع العذر ويحتاج إلى ذم المستندم، ومن منع مع قدرة فعلية التلطف في هذه المعاني، وليس عليه أن يساعد القدر. وعلى المأمول أن لا يماطل بعد الرغبة في اصطناع المعروف، ولقاء الآمل بالبشر، وترك التجهم، والإعطاء قبل المسألة، والمبادرة إلى قضاء الحاجة قبل فوت القدرة، وشكر السائل على إنبساطه، وإيضاح العذر إن تعذرت الحاجة، والتلطف في الاحتجاج بالمدافعة، وترك الوعد حتى يجد إنجازاً، واليأس قبل المطل، ومنع غير المستحق. وعليه أن لا يفسد الصنيعة بالمن إلا أن أكفرها وليها، وفي الآمل ذلة وحيرة.

وقد فصلت هذه الجمل بأبواب من وعائها واستتهج في مكاتبته سبيلها كان كالساري بدليل، والحادي على مثال. والله المعين على السداد والموفق للرشاد والمعوذ به من الانحراف، عن قصد وسنن الصدق والحرمان.

باب ما جاء في القناعة

كان يقال أروح الروح القناعة، وهي أقصى رتبة الفقير كما أن أقصى رتبة الغني الشكر. وقال الحسن بن سهل: ما رأيت رجلاً قط مقصراً في مطالبة الظفر بالفضل إلا وسعت عليه العذر وإن كان عظيم التفريط، إذا

كانت الأنفس مطبوعةً على حب السعي في حواية الفضل . وذلك دليل على أن اقتصار هذا على ما قل منه دون ما كثر لما وقف عليه من القسم وميلاً إلى راحة القناعة . أنشدني بعضهم للعطوي :

الحر يد نس بين الحرص والطلب فأخلع لباسهم بالعلم والأدب
أقبح بوجه يسارٍ كان قائدَه وجهاً رعت كنفه نذلة الطلب
ما كان قائدَه ذلاً وسائقَه منا فأكرم منه لوعة السغب

قرأت في كتاب كليله ودمنة: إن من صفة الناسك السكينة لغلبة التواضع وإتيان القناعة ورفض الشهوات ليتخلى من الأحزان وترك إحقاق الناس لئلا يخافهم . وفيه إن الرجل ذا المروءة يكرم من غير مال كالأسد الذي يخاف وإن كان رابضاً . والغني الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكلب وإن كان جوالاً . وأنشدت ل محمد بن حازم الباهلي .

ما كان مال يفوت دون غدٍ فليس بي حاجة إلى أحد
إن غنى النفس رأس كل غنى فما افتقار إلا إلى الصمد
رب عديم أعز من أسدٍ ورب مثرٍ أقل من نقد
الناس صنفاً في زمك ذاء، لو تبتغي غير ذين لم تجد
هذا بخيل وعنده سعة وذا جواد بغير ذات يد

وقال علي بن عبيدة: القناعة نعمة جسيمة، ورزق واسع، وحصن حصين، وألفة دائمة، وراحة عظيمة، وعيش صاف، ودعة للبدن، وعزة للنفس، وصيانة للعرض، وحياة لطيبة، وسلامة وعافية فان وفق صاحبها للصواب في التمييز، واختيار ما يستحق به الاصطفاء صفاً من الشكوك وعصمة الله (والله لا يجب كل محتال فخور) . وأنشدت:

قل للزمان أصب من شئت بالعدم وللمنية من أحببت فاصطلم
فحسبي الله رباً قد رضيت به البر بالعود والعود بالنعيم
أعد خمسين حولاً ما علي يد لأجنبي ولا فضل لذي رحم
الحمد لله شكراً قد غنيت فلا أشكو لئيماً ولا أطري أخاكرم

يا نفسلا تعلقى بالأمل في إنصاف من صبحت من المترفين فأنهم في نخوة التجبر وعقوق التكبر والاستخفاف بمن لجأ إليهم .

ولا تغتري بالحرمة بهم والتقدم بالاستطالة، وإيثار عاجل اللذة على الحقوق الواجبة، وإغفال محمود العاقبة وترك الأناة عند الغضب والعجلة بالعقوبة، فتسكي أفبيتهم المعيبة وآمالهم الكاذبة، ولا تكوني تواقفة إلى ما لا يجدي عليك، ومعرضة عما فيه الخط لك . وارضى بقليل الحظ من الدنيا، وتبلغى بما أمكن منها، وخذي عفو ما كان محبباً لك، ولا تستصغري ما أنت فيه من الكفاف مع الخروج وما أتيت من الاثم الفاحش . للعزمي:

رضيت ببلغة وحطت رحلي
وأدرت الغنى وملكت أمري
وأحسن بالفتى من لؤم عارٍ
وسوى اليأس بين الناس عندي
وقالوا: قد دهيت. فقلت: كلا
فمن أبدي لنا بشراً جزيئاً
وإني للمطالب مستطيع
إذا اشتملت على اليأس الضلوع
ينال به الغني كرم وجوع
فلن يشقى بي الرجل الوضيع
ولكني أعز بي القنوع
ومن ولي فما فقد الربيع

علي بن عبيدة: يا نفس لا تسلكي سبل الاستكثار من المال فإن جمعه حسرة ووبال، واعتزني بالقناعة فإنما أشرف قدراً وأرفع ذكراً وخطراً، وأقرب إلى منزلة السعداء وأكسب للشكر وأزلف عند الخالق من الاستكثار من الفتنة الذميمة واحتمال أوزار المكاسب وهب الحرمان وثبات حجة المقت ولزوم سميت البخل.
قال الشاعر:

لطي ثلاث واصطبار على أذى
وأحسن عندي من تعرض ذي غنى
وألزمت نفسي اليأس حتى كأنني
وإن من استغنى وإن كان معسراً
من الدهر خير من نوال لنائم
تجمل مجهودٍ وصبر كريم
عدو لمن أترى صديق عديم
على ثقة بالله غير ملوم
عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

جر ما بدا لك أيها الدهر
لا زلت أستعفيك من خطل
لعلني بن عبيدة الريحاني: لقد سلك الأكياس سبيل الحظ في العاجل، وعظمت مراتب أقدارهم عند الناس، ورجعوا بأرض الدعة وعمرؤا أفنية السلامة، وأصابوا من الدنيا بلغة وكفاية فتعوا بها، وصرفوا ما لهم بما لا احتكام للافات عليه، ولا تنظر عيون الدول في الزوال إليه من رضوانه ونعيم جنانه.
أنشدني أحمد بن عبد الله:

لا تقتعن ومذهب لك ممكن
ومن المروءة قانع ذو همة
ما كنت إمعةً ولكن همة
فاذا تضايقت المطامع فاقنع
يسمو لها فاذا نبت لم يهلع
تأبى الهوان وفسحة في المنجع

وهذا ضد المعاني المتقدمة، لأنه أمر بالطلب فإذا أعييت الحيلة فبالقناعة. وهذه قناعة اضطرار لا قناعة اختيار.
وسئل ابن حازم: ما مالك؟ فقال:

للناس مال ولي مالان مالهما
إذا تحادس أهل المال حراس

مالي الرضا بالذي أصبحت أملكه ومالي اليأس مما يملك الناس

وقال أيضاً: الثقة بالناس من اليأس.

وقال خالد بن صفوان: نظرت في أمري فوجدت الذي منعيه القدر لا سائق له، ووجدت الذي أعطانيه لا حابس له، فعلام أعني نفسي.

قال بزرجمهر: إذا كان قاسم رزقي هو الله وما قد قسمه فليس يغيره أحد فلم أتحمل منة الخلاق؟ وللحسين بن علي رضي الله عنهما:

فان تكن الدنيا تعد نفيسة فدار ثواب الله أعلا وأنبل

ولأبي خراش الهذلي في القناعة والإيثار على النفس:

أرد شجاع البطن قد تعلمينه وأوتر غيري من عيالك بالطعم

وأغتبق الماء القراح تعففاً إذا الزاد أمسى للمزج ذا طعم

لعنتره بن شداد في الصبر مع القناعة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكـل

عبيد الله: القناعة عز صاحبها، وميسرة فقره، ومسلاة عدوه، وتبجيل له في أعين العقلاء، وتجل في الخاصة والعامه، وذهاب بالنفس عن مسألة البخيل، والتعريض لمعروف من جعل فقره في قلبه وغناه في كسبه، وصيانة العرض، وإحياء السنة، والرضا باليسير، والتقليل للكثير، والرغبة عما في أيدي الناس. فان الناس أتباع بالحق ونظارون بعين الدنيا موكلون باجتنب المؤمن إذا اختل وتعظيم المناق إذا استغنى إلا قليلاً منهم في جملتهم كالشامة في مسك البعير والقلامه في النهر الغزير، ففي الاعتزال عنهم سلامة وفي الاختلاط بهم الضر، والبلاء الذي ليس بمنقض إلا ما دفع الله. ولذلك أقول:

رضيت للعز بالقتوع فليست أنقاد للمنعـوع

لبائع حظه هـلوع لازم دنياه ذي خضوع

كان الخليل بن أحمد قنعا ضففا، فكتب إليه سليمان بن المهلب وقد ولي السند يستزيره ليوليه أموره. فكتب إليه:

أبلغ سليمان أنني عنه في دعة وفي غنى غير أنني لست ذا مال

شح بنفسي أنني لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال

والرزق عن قدر لا العجز منقصه ولا يزيدن فيه حول محتال

وكان يقال: احتج إلى من شئت فأنت دونه، واستغن عن من شئت فأنت مثله، وفضل على من شئت فإنك فوقه.

ولأبي دلف.

نفس الكريم هي الغنية

ليس الغنى في المال بل

باب ما جاء في المقادير

إلتجأ اختلاف المخلوقين في المتضادات إلى أصلين. يتفرع منهما فصول شتى. فأحد الصلين ما يجب في حجة العقل الانقياد له والتسليم لما جاء عن الله عز وجل فيه فإنه يقول: (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها). وقال عز وجل: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله). وقال: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات). مع أي كثيرة تقوم الحجة عند المصغي إلى الحس المنقاد إلى البرهان. ولم ينعنا من ذكرها إلا إحاطة علم أكثر الناظرين في هذا الكتاب بما.

سئل بعض الحكماء: ما الذي يحمل الموقن بالقضاء والقدر على الدووب والسعي؟ قال: يحمله عليهما القضاء والقدر.

وقيل: استعمال الجد من دلالة التوفيق.

قرأت في كتاب كليله ودمنة: إن السبب المانع رزق العاقل هو الذي يسوق رزق الجاهل. قال الشاعر:

فانهض بجد في الحوادث أو ذر

الجد أنهض بالفتى من عقله

قدر وأبعدها إذا لم يقدر

ما أقرب الأشياء حين يسوقها

وعليك بالأمر الذي لم يعسر

فإذا تعسرت الأمور فارجها

قال بزرجهر: العاقل لا يجزع من جفاء السلطان وتقدمه الجاهل دونه لمعرفته بأن الأقسام لم توضع على قدر الأخطار وعلى سبيل الاستحقاق.

ولنصور بن باذان:

من أجل أن حظ قدره

يا ذا الذي نم دهره

ففي المغيرة عبره

لا تأسفن لشيء

لم يعطه الله بعره

لو نبيل رزق بعقل

فأخذ بعض المحدثين هذا فقال:

أزعم أن الحظوظ بالسبب

قد كنت للأعتزال منتحلاً

ولست أوصي بالعلم والطلب

فلآن قد صرت لا أقول به

للرزق كوان والجد كاللعب

فالعلم كالجهل والمطالب

وروي عن جعفر بن محمد أنه قال: إن الله وكل الحرمان بالعقل، والرزق بالجهل ليعلم العاقل أنه ليس إليه من الأمر شيء.

وقيل: لا يزال الله يرزق الجهال حتى يعتبر بهم العقلاء.

وكان يقال: غباوة تنفع خير من عقل يضر.

وقيل: الحظ يغلب العقل.

وأنشده الشاعر:

إذا كان الزمان زمان حمقى

فان العقل حرمان وشوم

فكن حمقاً مع الحمقى فإني

أرى الدنيا بحظهم تدوم

آخر:

لا تأتئين الأمر من وجهه

فاتنه يعسر من كل باب

وشاور النوكى ولا تعصهم

تلاق ما تهوى بعين الصواب

وجالس الأتذال تسعد بهم

فان هذا الدهر دهر الكلاب

الواسطي:

سبحان من أنزل الأيام منزلها

وصير الناس مرفوضاً ومرموقاً

فعاقل فطن أعبت مذاهبه

وجاهل كان في الأقوامخ مرزوقاً

هذا الذي جعل الأسباب حائرة

وصير العاقل التحرير زنديقاً

آخر:

خاب امرؤ راح يرجو أن ينال غنى

بالعقل ما عاش في دهر المجانين

يا رب فاجعل لنا عقلاً نعيش به

يا مستجيب دعاء المرء ذي النون

آخر:

ثنتان من سيرة الزمان تحيرت

بهما عقول ذوي التفلسف والنهى

مثر من الأموال منقوص الحجى

وموفر الآداب منقوص الغنى

آخر:

لما رأيت الدهر دهر الجاهل

ولم أر المغبون غير العاقل

شربت خمراً من خمور بابل

فصرت من عقلي على مراحل

آخر:

قد يعدم الحازم المحمود نيته

نيل الثراء ويثري العاجز الحمق

فلا تخافي علينا الدهر وانتظري فضل الذي بالغنى من عنده نثق

إن يفن ما عندنا فالله يرزقنا من حيث شاء ولسنا نحن نرتزق

وكان يقال: الاجتهاد في الطلب من دليل القضاء والقدر.

وقال بزرجهر: كياً يذبذن توشأى وتر. يقول: إذا لم يساعد القدر كانت الآفات من جهة الاجتهاد والطلب.

وكان يقال: إذا كان القدر حقاً فالحرص باطل.

قال الشاعر:

هي المقادير فلمني أو فذر إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

ومن قول الواسطة بين من يقول بالحتم في هذه المعاني وبين من يقول بالإهمال ومحض الاستطاعة قول بعض الحكماء: إن اليقين بالقدر لا يمنع العاقل من التوقي. ولكن التوقي فرض والطلب واجب والقدر غالب. وما أقرب ما قال من قول النبي صلى الله عليه وسلم: إعلموا فكل ميسر لما خلق له. ومن قول من يقول بمحض الاستطاعة والاعتزال وأبرأ إلى الله من ذلك، غير أني أحببت ذكره للناظر في كتابي ليتبين له فساد الأصل. قال بعضهم:

فسدد وقارب في أمورك واجتهد فهل لك في ترك المحجة عاذر

ولا تلزم المقدر ذنبك كله فأنت ولي الذنب ليس المقادر

فلو كان للمقدار في الذنب شركة لكان له حظ من الإثم وافر

آخر:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

آخر:

إذا أعطاك قتر حين يعطي وإن لم يعط قال: أبقى القضاء

فبخل ربه سفهاً وظلماً ليعذر نفسه فيما يشاء

آخر:

اصفع المجر الذي بقضاء السوء قد رضي فإذا قال: لم فعلت؟ فقل هكذا قضي

باب مدح اليأس واستدعائه

وما يعرض للطالب من الذلة والحيرة

قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن محمد: موطنان لا أعتذر للعيبي فيهما: عند طلب الحاجة وعند مخاطبة الجاهل. وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: طالب الحاجة أبله، فأرشدوا أخاكم وسددوه. وعن ابن عباس: عند كل دخيل دهشة فأرشدوا أخاكم وابدأوا ذوي الخواتج بالجح قبل المطالب. ويقال: ذل الطالب بقدر حاجته.

وكلم أعرابي خالد بن عبد الله في حاجة فلجلج في كلامه. فلما عرف ذلك من نفسه قال: لا تلمني على الاختلاط فان معي ذل الحاجة ومعك عز الغنى عني.
 وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. احتج إلى من شئت فأنت أسيره، واستغن عن من شئت فأنت نظيره، وفضل علي من شئت فأنت أميره.
 وقال رجل لخالد بن عبد الله: أكلمك بهيمة الأمل أم بجرأة اليأس؟ قال: بل انبسط فتكلم فلك ما أملت. قال النبي صلى الله عليه: المسئلة من وجه غني كدوح أو هوش في وجه صاحبها. قال: أتى رجل محمد بن مطرف بن عبد الله بن الشيخير فقال له: يا ابن أخي اكتب حاجتك في كتاب فاني أضن بوجهك عن ذل المسئلة. وكان خالد بن عبد الله يقول: ارفعوا إلي حوائجكم في رفاع فاني أكره أن أرى ذل السؤال في وجوهكم. وكان يتمثل بهذه الأبيات:

فأتما الموت سؤال الرجال

لا تحسبن الموت موت البلى

أشد من ذاك لذل السؤال

كلاهما موت ولكن ذا

ولبعض الكتاب.
 الكتاب وقاية للمسؤل، وصيانة للسان، ومبلغ ما الحياء مانع منه. وقال لقمان لابنه: أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل شيء، واحفظ عني ما أقول: اعلم أنه لا يظأ بساطك في فنائك إلا راهباً منك أو راعباً إليك، فابدأ بالنوال قبل السؤال فإنك متى لأجأته إلى مسألة أخذت من عرضه، وحر وجهه أكثر مما تعطيه من مالك.
 العتيبي قال: قال سعيد بن العاص: ما في الأرض أحد سألني حاجة وكلفته أن ينتصب فيها انتصاب العود فرأيت شيئاً مما أعطيته عوضاً مما كلفته. أبو سعيد قال: أخبرني رجل قال: قال القسري لرجل: ما يمنعك أن تسألني؟ قال: إذا سألتك أخذت مني ثمن ما أعطيتني.
 دخل عبد الله بن عباس على معاوية رحمهما الله، فقال معاوية: والله يا ابن عباس إن باي لكم لمفتوح، وإن خيري لمفتوح، ولا يغلق باي عنكم قلة ولا يجمع خيري عنكم علة. ولقد نظرت أمري وأمركم فرأيت أموراً مختلفة: ترون أنكم أحق بما في يدي مني وأنا أحق به منكم. وأعطيتكم العطية فتأخذونها متكارهين عليها.
 تقولون أخذنا دون حقنا وقصر بنا عن واجبنا، فبئس المتزلة نزلت بها منكم، أعطيتكم فلا أشكر وأمنع فلا أعذر، ونعم المتزلة نزلت مني أنصف قاتلكم وأعطى سائلكم؟ فحسر ابن عباس عن ذراعيه فقال: يا معاوية فتحت لنا بابك حين قرعناه، ومنحتنا حين سألناه، ولنن أغلقت عنا بابك لنكفن أنفسنا عنك. وهذا المال فليس لك فيه إلا ما لرجل من المسلمين فعلى أي جهة أعطيتناه. ولولا حقنا فيه ما أتلك آت منا بجملة خف ولا حافر. كفاك يا معاوية أم أزيدك؟ قال: لا. بل كفاني.
 مر أبو الأسود الدؤلي بالأحنف بن قيس وعليه ثياب رثة.
 فقال: يا أبا الأسود لو استبدلت بمكانه؟ فقال: رب مملول لا يستطيع فراقه. فبعث اليه بتخوت فيها من ألوان الثياب. فأنشأ أبو الأسود يقول:

أخ لك يعطيك الجزيل وناصر

كساتي ولم أستكسه فحمدته

أليس أحق الناس إن كنت شاكراً لشرك من أعطاك والوجه وافر
أنشدني عاصم بن محمد الكاتب لأبي الأسود الدؤلي:

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت
فتى غير محبوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلة من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلّت

آخر:

لساتك بالموعود باب مفتوح وكفك بالمعروف أضيق من قفل
تمني الذي يأتيك حتى إذا انتهى إلى أمد ناولته طرف الحبل

باب راحة اليأس وعزه

أنشدني محمد بن عيسى:

ويوم منى أعرضت عنها ولم أقل لحاجة نفسٍ عند ليلى نوالها
وفي اليأس للنفس المريضة راحة إذا النفس زلفت خطة لا تنالها

وكان يقال: اليأس أحد النجحين. ويقال: السراح من النجاح.

قال الشاعر:

أرحني بالذي تضمّر إن المظل تكدير وإن اليأس كالنجح إذا لم يك تحرير

آخر:

لعمرك لليأس قبل المطال أروح من أملٍ كاذب

اليأس أروح من تأميل مغرور. وقال بعض الحكماء: كل فائتة إذا وقع اليأس منها رزقت السلوة عنها. ومما يشبه هذا قول المجنون:

وإن أك عن ليلى سلوت فاتما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر

ولبعض الكتاب. شغلت قلباً فارغاً بوعدك، وأتعبت بدنأ وادعاً بضمانك، فإن أعدمته لذة النجح من مطلي فلا تعدمني اليأس بصدقي. أنشدني أبو النضر.

وعدت أبا العباس وعداً فإن يكن له منك إنجاز فمني له الشكر

وإن تكن الخرى فيأس معجل تراح به نفسي وينبسط العذر

وقال الفارسي: يكي به هزارها آسانية. معناه: مرة واحدة تعقب ألف راحة. شاعر:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بيأسٍ فإن العز في الياس

من يعمل اليأس بيدي اليأس بهجته حتى يرى جبلاً في أعين الناس

آخر:

واليأس مما فات يعقب راحة ولرب مطمعة تعود نباحا

وقيل: اليأس عز والطمع ذل. وللباهلي:

وسوى اليأس بين الناس غدي ولن يشقى بي الرجل الوضيع

آخر:

قال سعيد بن العاص: ما رددت أحداً عن حاجة فخرج عني إلا تبينت عز اليأس في قفاه. وقال عمر بن

الخطاب: من ينس من شيء استغنى عنه.

آخر:

وما نال مثل اليأس طالب حاجة إذا لم يكن فيها نجاح للطالب

آخر:

ويئست مما قد لهجت به منها ولا يسليك مثل اليأس

باب إحماد التؤدة والرفق

قال بعض الحكماء: التؤدة يمن وفي اليمن نجح.

القطامي.

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

قال النبي صلى الله عليه : من حرم الرفق فقد حرم الخير.

وقال صلى الله عليه لعائشة: عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئاً إلا زانه ولا يفارق شيئاً إلا شانته. ولعلي بن

أبي طالب كرم الله وجهه:

إصبر على مضض الإدلاج في السحر وللروح على الحاجات والبكر

لا تعجزن ولا يضجرك مطلبة فالنجح يتلف بين العجز والضجر

إني وجدت وفي الأيام تجرية للصبر عاقبةً محمودة الأثر

وقل من جد في شيء يطالبه فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

خلق الله عز وجل السموات والأرض في ستة أيام ولو شاء قال لهما: كونا. فكانتا. وقال عز وجل. (فقولا له

قولاً لينا) ولو شاء أن يأمرهما بالعنف لأمرهما، ثم لم يكن يصيهما من مكروه فرعون ما قد تكفل لهما بصرفه

عنهما ربهما. وقال الشاعر:

تأمل ولا تعجل بأمر تريده فإن الفتى من أمره ما تأملا

يقول: الإنسان على رأس أمره ما دام يتأمل ويتفرق في استعمال الخزم. فإذا عجل فرط وخرج الأمر عن يده.
وقال هديبة:

ولا أركب الأمر المدوي غممةً

كما تعمل العشواء تتركب راسها

بعميائه حتى أزور فأنظرا

وتترك جنباً للمعاذير معوراً

المدوي: الملتبس المغطى كاللبن الذي عليه دواية. وهي جلدة تتركبه. غمة: لبسة. العشواء: التي تبصر في الليل.
يقول: إذا لم تحزم في أمرها ذهبت حيث أرادت على غير بصيرة وتركت جنبها معوراً للمعاذير، أي لم يكن لها
عذر في خطاياها. وهذا مثل، يقول فلست أنا كهذه.

باب ذم الحرص

قال علي بن عبيدة: الحرص فضول الشهوات، واشتطاط الأمان، وأذى الطباع، ومهانة النفس، وشك في
المقدور، وسخف في الرأي، وزهد دائم. وقد نهي الله عن الحرص. فقال عز وجل: (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا
به أزواجاً منهم). وقال الحسن بن سهل: ما رأيت رجلاً قط مقصراً في مطالبة الظفر إلا وسعت عليه العذر وإن
كان عظيم التفريط، إذا كانت النفس مطبوعة على حسب السعي في حياوة الفضل. وذلك دليل على أن
اقتصار هذا على ما قل منه دون ما كثر لما وقف عليه من القسم.

تقول العرب: جاءنا فلان تضب لثته ويدهمى فوه ويرذم أنفه. إذا جاء طعاماً حريصاً. فقولهم تضب لثته أي
يسيل من لثته الماء لا يجبس من حرصه لعابه. وقال عنترة في مصداقه:

أبيناً أبينا أن تضب لثاتكم

على مرشقات كالظباء عواطيا

قوله: يدهمى فوه من الدم أي يسيل منه الدم. وأصله من أكل اللحم أن يحرص الرجل عليه فيسرع أكله حتى
يأكل العظم فيدميه.

ويرذم أنفه أي يسيل منه المخاط من حرصه لا يمسه. والرذم القطر. وقال فيه كعب بن زهير يصف الغنم.

من لي منها إذا ما أزيمة أزمت

ومن أويس إذا ما أنفه ردما

ليس حرصك على مطلوبك بزائد في مقسومك، ولا توانيك فيه بناقص ما قدر لك منه. وبين ذلك سعة
الاستبصار وتفصير الاقتصار، فأجل في الطلب وأقلل من التعب. فحسبك تكلفاً حملك نفسك على متالفها مع
علمك بقول الله في قصة لقمن: يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في
الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير.

الحرص يزري لصاحبه وترك السعي يدعوه إلى سوء الظن بخالقه، فلا تكابر القدر مكابرة المغالب ولا تتكل عليه
اتكال المستسلم. قال عدي بن زيد:

قد يدرك العاجز من حظه

والرزق قد يسبق حرص الحريص

باب ما يعرض للطالب من المكارة

في كتاب كليله ودمة: ينبغي للعاقل أن يقرن رجاء النجاح والسلامة بخوف الإكداء والنكبة، ولا خير في الشيء الذي في عاجله مال وجاه وفي آجله الجائحة والتلف. وفي الأمثال: رب طلب قد جر إلى حرب، ورب مطمعة تعود ذباحاً. وسقط العشاء به على سرحان. قيل ذلك لرجل خرج في طلب ما يتعشى به فأكله الذئب. وفي الأمثال كالباحث عن المدينة.

وأصل ذلك أن تيسأ بحث عن شيء يأكله فوقه على مدينة ذبح بما. قال صالح بن عبد القدوس:

وكم من ملح على بغية

وكم تارك حظه بعدما

قال بعض الحكماء: خل عما هوى تنج مما تخشى. وفي كلام لبعض الأعراب: ربما أثمر الأمل أجلاً وتنجت الأمانة منيةً وأنشدني الليث:

ورب سلامة تدعو

ومطمعة بها حقاً

وقال بعض الأعراب: طالب الفلاح كالضارب بالقداح سهم له وسهم عليه. وللفارسي: نه هر جاكه دو ذ آيد دير برتك توكداني هُند. يقول: ليس كل دخان طيبخ ربما كان دخان كي. المعنى: لا تطمع في كل شيء حتى تختبره. وللعرب في هذا: لا تطمع في كل ما تسمع. قال عبيد الله: من حاول أمراً بمعصية كان أفوت لما رجي وأقرب لخيء ما اتقي. إن الحوائج جهة منها اليسيرة والمنبعة، فاحذر تنجز حاجة توفي على شرف القطيعة. انشدني هشام بن محمد للعنابي.

فإن جسيمات الأمور مشوبة

بمستودعات في بطون الأسود

عبيد الله: أما بعد فإن الجد في الطلب يعرض صاحبه للعطب فتبصر في العواقب، فقد قيل: من لم ينظر في العواقب فليس للأمر بصاحب.

باب الإجمال في الطلب

قيل لبزر جهمر: متى يكون الإكداء خيراً من النجاح؟. قال: إذا أكدي بك الإجمال وأنجح بك سوء الطلب. قال الحسن البصري: لا تجاهد الطلب جهاد المغالب واتكل على القدر اتكال المستسلم، فإن ابتغاء الفضل من السنة والإجمال في الطلب من العفة. وليست العفة بدافعة رزقاً ولا الحرص بجالب فضلاً، لكن الرزق مقدور واستعمال الحرص اكتساب المأثم.

وفي كتاب كليله ودمة: ينبغي للعاقل أن يكون إدخاله يده في فم التين وابتلاعه سمه أهون عليه من مسألة اللئيم. قال إبراهيم بن حفصة لابنه: يا بني صن شكرك عمن لا يستحقه واطلب المعروف ممن يحسن طلبك إليه واستر ماء وجهك بقناعتك وتسل عن الدنيا كنتجافيتها عن الكرام. قال علي بن أبي طالب عليه السلام: مسألة الرجل السلطان كمسألة والده لا يشينه ولا ينقصه. قال بزرجهمر:

أشد من الحاجة أن تكون إلى غير أهلها. قال آخر: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها.
قال أكنم بن صيفي: خير ما فاتك ما توفي بفوته عرضك. ومن هنا أخذ الباهلي قوله:

ما سؤتني إذا وضعت الثقل عن عنقي بمنع رفدك إذا أخطأت في طلبني

اعتضت من ذاك عزا باقياً وحمياً للعرض مني وإبقاءً على حسبي

قال بعض الحكماء: لا تسأل من لا يشفع لك عنده رغبة في الشكر أو يعينك عليه نية في المعروف. وقيل:
مكتوب في التوراة: ابن آدم لا تسأل الناس، فإن كنت لا بد فاعلاً فسل معادن الخير ترجع مغبوطاً محسوداً.
للباهلي وقيل للعلوي البصري:

ولست بنظارٍ إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء من جانب الفقر

آخر:

وأعسر أحياناً فتشتد عسرتي وأدرك ميسور الغنى ومعني عرضي

قال: وأنشدني ابن أبي الأشعث:

سل الخير أهل الخير قدماً ولا تسل فتى ذاق طعم العيش منذ قريب

قال بعض الحكماء: من أمل فاجراً كان ادنى عقوبته الحرمان.

قال أبو سعيد: سمعت أعرابياً يقول لأخيه: قد كنت نهيئتك عن مسألة قوم أرزاقهم من السنة الموازين وأفواه
المكايل.

وأنشدني محمد بن إسحق:

ك ما أخطأت في منعي

لئن أخطأت في مدح

بوادٍ غير ذي زرع

فقد أحلت حاجاتي

عربي:

مدحي فيك يا أبا عدنان

أملني فيك غرني فأقنني

أن يجازي عليه بالحرمان

إن من ضيع الرجاء حقيق

قال زيد بن نسيط لوهب الشاعر: ما الاجمال؟ قال: أن لا تسأل مثلك. وأنشدني وهب:

حمدت الله ان لم يأكلوني

ولست بسائل الأعراب شيئاً

تعرض بعض طلاب المعروف لبخيل ذي سلطان فتورعه بضرب خمس مئة سوط. قال: وددت أنك قد عجلتها.
قال: ولم تستحب تعجيل المكروه؟ قال: لأصير عظةً ونكالاً لمن سأل مثلك. إني تكلفت من هراقة ماء وجهي
لك وإعمال فكري اليك وجولان قلبي في ليلي لاختيارك موضعاً لحاجتي شقةً وتعباً.
فكما لم أصن وجهي عن ابتذاله فلا تصن رفدك عن اختصاصي به. فإنه إن لم يكن لي مجازة بذات اليد

فلا جتهاد في الشكر أحد الجزائين، وعلى الله المكافاة في الآخرة اذ قصرت عنها طاقتي، وكل دوئها وسعي.
آخر:

يجزيك أو يثني عليك وإن من أتى عليك بما فعلت فقد جزى

ومن أحسن ما بلغني في شبيه هذا المعنى:

فعاوجوا فأنثوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أنثت عليك الحقايب

وقال بعضهم: ما أحد أعظم علي يداً من رجل بات طول ليلته يتململ على فراشه، فلما أصبح رأني موضع اختياره فذاك لو وهبت له الدنيا لما كان ماء وجهه عوضاً:

ما ماء كفك إن جادت أو بخلت من ماء وجهي وإن أفنيته عوضاً

باب ذم الفقر

قال أكنم بن صيفي: الفاقة تمنه الشرف وتحمل الذكر، وتوجب المذلة:

كم من كريم سيد ماجد شيمته خلف واجمال

أخمله الفقر فأزرى به وناقص سوده المال

لا تحمد الناس وإن عظموا فاما تكرمك الحال

ذو المال معبود وإن لم يكن له على الإخوان إفضال

وما عال الفقر على أحد ولا عدل عليه الازد عن الحجاة وقورن بالخبية، وانتكشت دونه الخيل، وضاق عليه الزين، واتسع فيه الشين، وسيم خسفاً وجشم افراطاً وحمل هزيمة وألزم في كل أحواله عاراً ومذمة، وكان ضرعاً مستجدياً. روي في بعض الأحاديث: كاد الفقر يكون كفرةً. وأنشد:

المال فيه مجلة ومهابة والفقر فيه مذلة وقبوح

آخر:

سميت الدهر حين رأيت دهرًا يكلفني التنصف للرجال

آخر:

لعمرك ان المال قد يجعل الفتى سنياً وان الفقر بالمرء قد ييرزى

آخر:

ذريني للغنى أسعى فاني رأيت الناس شرهم الفقير

وأصغرهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له كرم وخير

يباعد في الندى وتزدريه حليلته وينهره الصغير

ولتلقى ذا الغنى وله جلال
يكاد فؤاد صاحبه يطير
له فضل عليهم غير عرف
سوى أن ماله مال كثير
قليل عيبه والعيب جم
ولكن الغنى رب غفور

وقال بعض الحكماء: المال يسود غير السيد ويقوي غير الأيد.

الفقر يرزى بأقوام ذوي حسب
وقد يسود غير السيد المال

آخر:

كم سود المال قوماً لا قديم لهم
وأخمل الفقر سادات من العرب

وفي كتاب كليله ودمنة: الفقر داعية إلى أصحابه مقت الناس، وهو مسلبة للعقل وللمروءة، ومذهبة للعلم والأدب، ومعدن للتهمة ومجمعة للبلايا. من نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره مقت وأوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن فقد عقله واستنكر حفظه وفهمه، ومن أصيب بفهمه وعقله وحفظه كان أكثر قوله وعملة قيمة عليه لا له. فإذا افتقر الرجل أهمة من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان يظنيه حسناً، وإن أذنب غيره ظنوه وكان للتهمة وسوء الظن موضعاً، وليس من خلة هي للغني مدح إلا هي للفقير عيب، فإن كانه شجاعاً سمي أهوج، وإن كان جواداً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً. فالنوع أهون من الفاقة التي يضطر صاحبها إلى المسألة لا سيما من البخيل.

قال: وكان احيحة بن الجلاح يزل بالمدينة، فافتقر فجفاه اخوانه وأحباؤه وجفته زوجته، ثم أنه ائرى فاستفاد نيفاً وتسعين براً للنخل بالمدينة وكان له نخلة على ثلاث منها. فكان يأتيها بنفسه ويسقيها ويتعهد بها. فقال في ذلك:

استغن أو مت ولا يغرك ذو حسب
من ابن عم ولا عم ولا خال
إني أكب على الزوراء اعرها
ان الكريم على الإخوان ذو المال
والمال يغشى أناساً لا طباخ بهم
كالسيل يغشى أصول الدندن البالي

الدندن من النبات: ما قد بليت. لا طباخ لا فائدة. وله أيضاً:

أطعت العرس في الشهوات حتى
أصارتني عسيفاً عند عبي
إذا ما جئتها قد بعت عذقاً
تقبل أو تعاتق أو تفدي

والسائر في هذا المعنى قول أوس بن حجر:

وإني رأيت الناس إلا أقلهم
خفاف العهود يكثرون التنقلا
بني أم ذي المال الكثير يرونه
وإن كان عبداً سيد الأمر جفلا

وهم لمقل المال أولاد علة وإن كان محضاً في العشيرة مخولاً

آخر:

إذا قل مال الرجل قل صديقه وأومت إليه بالعيوب الأصابع

آخر:

إذا قل مال المرء قل حياؤه وضافت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لا يدري وإن كان حازماً أقدامه خير له أم وراؤه

وقال بعض الفرس: الموت شديد وأشد منه الغربة، وأشد الشدة الفقر، فإن الرجل إذا افتقر كان ضرع اللسان لا يزال يضرع فلا يقبل منه.

باب مدح الفقر

قال عبيد الله: قد قال الناس في ذم الفقر فأكثرُوا. وغنما ذمه من ذم لن الفقر بلوى والغنى عافية. والناس يختارون العافية وإن لم يقوموا بشكرها ويتبرأون من البلوى، وإن أسوأ جزاء الصبر عليها. وليس من ابتلي فصبر كمن عوفي فشكر، وإن كان كلنا المترلتين عند الله وجهيتين معظمتين، لأن المبتلى الصابر يكاد يبلغ درجة النبياء صلى الله عليهم. وينبغي للعاقل أم يسأل الله عز وجل العافية على كل حال، ولا يتعرض للبلاء على حال، غير أن محمل العافية خفيف ومحمل البلاء ثقيل. فعلى قدر ثقل البلاء وشدته يرى للصابر عليه الثواب من ربه. وقد قال الله تعالى: (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى). وقال: (وإذا أنعمنا على الإنسان اعرض ونآى بجانبه). وقال: (إنما أولادكم فتنة). فمن وفق رأى في أضعاف البلاء جلائل من نعم الله عز وجل وحسن اختياره وجميل نظره فعلم أن منع عبده ما منعه خير له وأعطاه ما ينبغي أن يفوز به من ان يكون حجة عليه واستدراجاً له. فقد بلغنا في تفسير قوله: سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. قال: ما جددوا معصية الا جدد الله لهم نعمة يستدرجهم بها. وقال في آل فرعون: كم تركوا من جنات وعيون. وزرع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين.

كذلك وأورثناها قوماً آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين.

وفي الحديث إن اليهود غيروا عيسى عليه السلام بالفقر. فقال: من الغنى أو تيمم البلاء. إنا لم نر أحداً يعصي الله ليفتقر وإنما يعصي الله ليستغنى. وإنما كان يقول: شعاري الفقر ولباسي الشعر، وطعامي ما أنبت الأرض، ودابتي رجلاي، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس، أصبح ولا شيء لي، وليس على وجه الأرض أحد هو أغنى مني. وبلغني أن الفقير الصبور يدخل الجنة قبل الغني الشكور بأربعين عاماً. قال: وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون.

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: لن أموت وعلي أربعة آلاف أنوي قضاءها أحب إلي من أن أترك مثلها حالاً. وقرأت أن سلمان قال: خشيت أن أكون تركت عهد النبي صلى الله عليه. قالوا: ولم؟ قال: لأنه عليه السلام قال: من أراد أن يدخل الجنة فلا يكونن زاده من الدنيا إلا كزاد الراكب. قال سلمان: وأنا قد جمعت ما ترون.

قال: فقوموا ما عنده فبلغ ثمانية عشر درهماً. ويروى عن النبي صلى الله عليه أنه كان من دعائه: اللهم أحيني مسكيناً وتوفني مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين. وروى أنه كان يقول: اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً. فسئل بعضهم ما الكفاف؟ فقال: جوع يوم وشبع يوم. ولبعض المعمرين:

**أخى إن الجائحات عركنني عرك الأديم
وتركنني متخرق الأظمار في ثوبي عديم**

إن كن أثوابي بلين فإنهن علي كـريم

ويروى أن الفقير شعار الصالحين. ويروى عن عيسى عليه السلام أنه كان لا يأوي تحت سقف بيت، فأجأه المطر ذات ليلة إلى غار فدخله فإذا سبع قد سبقه إليه. وكان صدره قد ضاق قليلاً فأوحى الله إليه: يا عيسى أضاق صدرك؟ فوعزتي لأزوجك أربعة آلاف حوراء ولأولن عليك ولأولن عليك ألف عام. للعتابي ويقال لابن الجهم:

**ولا عار إن زالت عن الحر نعمة
ولكن عاراً أن يزول التجميل**

ابن الأعرابي:

**لعمري لئن ساءت منك بديهة
لقد ضمن الأحشاء مني عزيمة
وان امرأ لم يثلم الدهر عرضه
على طول تعنيف لموضع مدخر
كفا بالقي عاراً أو نقصاً إذا بدا
له منظر زاك وليس له خبر**

وكان يقال: من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا. قال الحسن: يا ابن آدم ان كنت تطلب ما يكفيك فأدني ما في الدنيا يكفيك. وغن لم يقنعك ما يكفيك فليس شيء من الدنيا يغنيك.

باب الحث على الطلب

قال بعض الحكماء: عليكم بالرحل والإرتحال ونصب البدن واحتياض الغمرات واستهال الوعور، واجتراء أودية الرغبة لارتياح المنفعة وطلب المعيشة، فان الحازم لا يدع لدعة نفسه ومصالحة شأنه مصعداً إلا صعده، ولا موطأ إلا أتمسه، ولا مرجماً إلا رجمه، ولا مضيقاً إلا سلكه. وأنشدني بعضهم:

**زحزح همومك بالمهرية النجب
واقذف بنفسك في الآفاق واغترب
حتى تنال غنى من وجه مطلبه
وتستريح من التردد والطلب**

وقال بعض الحكماء: لا تدع الحيلة في التماس المال بكل مكان. فان الكريم محتال والديني عيال. وكان يقال: اتعب يومك لراحة غدك. قال الله تعالى حثاً على الطلب: فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله. ومدح قوماً

بالطلب . فقال: وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله . وقال عمر بن الخطاب: اقبلوا على ما يصلحكم من أمر دنياكم فإنه قوام وجوهكم وبلاغ إلى آخرتكم.

فسر في بلاد الله والتمس العنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ولا ترض من عيش بدون ولا تتم وكيف ينام الليل من كان معسرا

وفي الأمثال: أطلب تطفر . وفيها قال شاعر:

ولا تقعدن بمضيعة ذلولا ولكن ألق دنوا في الدلاء

تجيء بمئنها ماءً وطوراً تجيء بحمأة وقليل ماء

وفيها: كلب جوال خير من أسد رابض . وكان يقال: من غلا دماغه صائفاً غلت قدره شاتياً . ولبعض الأعراب:

ألا خلني أمضي لشأني ولا أكن على الدهر كلا إن ذا لشديد

أرى السير في البلدان يغني معاشراً ولم أر من يجدي عليه قعود

إذ ما الفتى لم يبيغ إلا لباسه ومطعمه فالخير منه بعيد

آخر:

الوكر من آلة الفراخ ولا يوكر سبط الجناح هدار

أجدل ذو مخلبين مندمج يدمى له منسر وأظفار

فبالسرى والدجى وهاجرة والعيس تحت الظلام أوطار

ومهمه لا يرام جانبه عسكره بالمنون جرار

إذا تجاوزت منه مسبعة لاقتك مجهولة وأوعار

لا يألف الدهر وهو آيته حر أبي نمته أحرار

آخر:

رأيتي قليل النوم غير مسهد أذا أمل عال وهم مخالف

وقد سمعت لي منطقاً ذا أصالة وقد حمدتني في الأمور العواسف

وقد راعها مني جمال وبهجة وعلم بأنباء القرون السوالف

وقد عجبت أن لا تراني مومراً ولا ذي تلاد مستهل الطرائف

لأكسب مالاً أو يقال: ابن حرة سقته صروف الدهر كأس المتالف

وقع عبد الله بن طاهر: من سعى رعى ومن نام رأى الأحلام . قال الكسروي: أخذه من توقيع لأنوشروان:

ليس للحاجات إلا من له وجه وقاح

ولسان ذا فضولٍ

وغدو ورواح

قال بعض الحكماء: إني لأسعى في الحاجات، وإني لا أياس منها. وذلك الإعذار لئلا أرجع على نفسي بلوم. قال عمرو بن عتبة: من لم يقدمه الحزم أخره العجز. وقال بعض الحكماء: الروح في الحركة وهي مفتاح الدرك، وداعية النجاح. والكسل مغلاق الدرك وداعية الحرمان. وقيل لبزرجهمر: بم ادركت ما أدركت؟ قال: ببيكور ببيكور الغراب، وصبر كصبر الحمار وحرص كحرص الخنزير. وقيل لدغفل: بم بلغت ما بلغت؟ قال: بقلب عقول ولسان سؤول. عروة بن الورد:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترأً

لمبلغ عذراً أو يصيب غنيمةً

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه عن ربه عز وجل: (يا ابن آدم احدث سفراً أحدث لك رزقاً. عبيد الله في الحديث: سافروا تصحوا وتغنموا:

ولن يريح هموم النفس إذ حضرت

حاجات مثلك إلا الرجل والجمل

وقيل لأبي الأسود: مالك كثير الجولان وأنت كبير السن؟ قال: لئلاً أكون جليس المرأة وجليس البيت: لا تشاء العز تبول علي إلا بالت.

فصل لعبيد الله: ليس فضل السعي بزائد في مقسوم الرزق ولكن الله جعل له سبيلاً إلى إزالة العتب عن النفس ودركاً في الاستسلام لغلبة القضاء والقدر، إذ كان على المرء ألا يقبل على نفسه ذلاً. وليس عليه أن يزيل عنها قدرًا حتمًا. وهذا شبيه بقول الشاعر:

على المرء ألا يرام الضيم أنفه

وليس عليه أن يساعده القدر

باب ذم التواني والتسويق

كان يقال: العجز وطيء أي لا تكره صعوبة الحزم وتختار وطأة العجز. ول بعضهم: نكح العجز التواني فولدت بينهما الندامة. وقال أكتهم: لا أحب أن أكفي أمري كله.

قيل: ولم ذلك؟ قال: أخاف عادة العجز. وقال حكيم لولده: اياك والعجز والتواني في الأمور فتقذفك الرجال خلف أعقابها.

وكان الغريص مترفًا منعمًا لنفسه. فسأله بعض إخوانه أن يمشي معه في حاجة فقال له: لولا أن يراني عدوتي - ولم ترني منذ حين لمشييت معك. قال: ومن عدوتك؟ اقل: الشمس. لا وحياتك ما وقعت علي منذ سنة. وكما أن الإبطاء عند القدرة مذموم فكذلك العجلة قبل الفكرة مذمومة.

وقد مدح رجل من العرب رجلاً سئل عنه، فقال: إنه والله ما يكفكف من عجلة ولا يدفع في ظهره من بطء. وكان يقال للحاجة آفتان الاستعجال بما قبل وقتها والتأني فيها حتى تموت. وفي عهود بعض القضاة: وأمره أن يتجنب خصلتين هما آفتا القضاء وسبب تودير الحقوق: العجلة قبل إثبات الحججة، والانتظار بالفصل بعد وضوح الدلالة وقيام البينة. وانشدني محمد بن عيسى:

ولا تيأس من الأمر السحيق
ولا تنتظر فتقصر عن حقوق

فلا تطمع لأمر إن تدانى
ولا تعجل فتسبق ما يرجى

وكان إياس بن معاوية يتمثل:

وأوقف عند الأمر ما لم يبين له وأمضي إذا ما شك من كان ماضياً

وقيل لبزرجهمر: أمن الاجتهاد ما هو شر من التواني؟ قال: نعم. ما كان في غير حينه. قال بعض الحكماء: آفة الطلب في تيمم أوقاته. بلغنا أن رجلاً من العرب طلب الأدب حيناً فأعياه فتركه، فبينما هو في بعض الطريق يسير إذ مر بصخرة ملساء فتأملها فإذا الذر يدب عليها فمن كثرة ديبه كان أثر في الصخرة. ففكر فقال في تفكره: مع صلابة هذا الصخر وخفة هذا الذر أثر فيه هذا الأثر فأنا حري أن أدوم على الطلب وأجد في الأدب فلعلني أصير فيه رأساً. فراجع الإكباب على الأدب فلم يلبث أن خرج فيه مبرزاً. ولأبي العتاهية في ذم سوف وما أشبهها:

لا يشغلك لو وليت عن الذي أفنى القرون ولا لعل ولا عسى

وفي الحديث: أن رجلاً دخل المسجد والنبي صلى الله عليه جالس. قال له: يا فلان أما جمعت؟ قال: أما رأيتني يا رسول الله جمعت معك. قال صلى الله عليه: رأيتك آذيت وآنت أي أحرقت الحجيء. لم تنزل تسوق حاجتي حتى خرجت من آوانها إلى آواني لو أسعفتني بما فيه ما كان لها علي كثير أثر ولا من نفع، ولو أسعفتني بما في أول طلبتها لكان في ذلك صون لوجهي عن سؤال أحد سواك. وسبق منك إلي بارع عرف وجميل اصطناع قل ما سبق السابقون إلى أفضل منه. فقد قطعت الآن لساني عن الاحتجاج عنك فجعلت ذنبك وقايةً له عن الاحتجاج عنك. وبحسبي ما لحقني من إساءة تط بعد إحسانك. وزال عني عن معروفك ما قد كنت أعده لي عتاداً ومن محذوري حرزاً حريزاً.

باب ذم العجلة

وفي الأمثال: رب عجلة تمب ريثاً، يقول: رب عجلة يراد بها صلاح الأمر فتفسده حتى لا يصلح إلا بعد مدة طويلة فكأنها كانت ريثاً. وهذا قريب من قول بزرجهمر: إن شراً من التواني الإجهاد في غير حينه.

والخرق شؤم والأناة سعادة
والرفق يمن والأناة سعادة
فاستأن حلمك في أمورك تسلم
فتأن في رفقٍ تلاق نجاحاً

وفي الأمثال: الرفق يمن والخرق شؤم. أنشدني عبد السلام:

ولا تعجل بأمر الشك حتى
ولا تعجل بأمرك قبل حين
تبين والظهور لها بطون
فعد حين تنقطع الظنون

قال بعض الحكماء: إياك والعجلة فأهما خرق والحرق شؤم. وعليك بالأناة فإن يمن. وكان يقال: الزلل من العجل.

وإذا هممت بأمر خير فاعجل

وإذا هممت بأمر شر فاتئد

وليس من هذا الباب ولكنه ظريف.

والنبح قد يسبق جهد الحريص

قد يدرك المبطل من حقه

وهذا المعنى من باب المقادير وقد ذكرناه فيه. وكان يقال فيه: إن من الحزم والأناة الثبت، وإن العجلة لا تزال تورث أهلها حسرةً وندامة. قال: وأنشدت:

وبالروح على الحاجات والبكر

اصبر على مضض الإدلاج بالسحر

الساير في هذا المعنى قول الشاعر:

فإن للفتى من أمره ما تأملا

تأمل ولا تعجل بأمر تريده

ولعبيد الله: من عجلت إلى مدحه فلما كشفته اضطرت إلى مقته. ابن جدعان:

وبطيء يصيب يوماً نجاحا

ربما عاجل يخالف نجاحاً

قال بعض البلغاء: العجول مخطئ وإن أصاب. فكيف إذا أخفق؟ وقال: العجلة من الشيطان. لا تغرنك إصابتك مع العجلة، ولا يسوءك إخطاؤك من التأني والرفق. فإنك إذا عجلت فأصبت وافقت إصابتك قدراً لا محيص عنه. ولو لم تعجل لبلغت المراد كما بلغته لما عجلت، وعن كان ما أردت متعذراً في حال الرفق فهو مع العجلة اشد تعذراً، لأن العجلة رهق والتؤدة تأمل وبصيرة.

باب اختيار المأمول

قال النبي صلى الله عليه: (إذا طلبتم الحوائج فعليكم بحسان الوجوه. فأخذ معناه شاعر فقال:

على ما ثم من خير دليل

لوجه المرء ذي الخلق المصفى

وقد صدق الإله والرسول

كما قال الرسول رسول ربي

إلى من وجهه حسن جميل

عليكم بالحوائج فاطلبوها

آخر:

دعاني فلا عدت صلاحا

حسن ظني إليك أسعدك الله

إذ قال مفصلاً إفصاحا

ودعاني إليك قول رسول الله

فتتقوا لها الوجوه الصباحا

إن طلبتم حوائجاً عند ثوم

ما به خاب من أراد النجاحا

ولعمري لقد تنقيت وجهاً

وقال ابن عباس: لا تطلبن إلى أعمى حاجةً ولا تطلبنها بالليل من البصير. فإذا طلبتها فاستقبلها بوجهك. فإن الحياء في العينين. عطاء بن ميسرة قال: الحوائج من عند الشبان أسهل منها عند المشايخ. ثم تلا هذه الآية من قول يوسف: (لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم). وقول يعقوب: (سوف أستغفر لكم ربي). وكان ياقل: لا تترل حوائجك بالجيد اللسان ولا بالمتسرع إلى الضمان فإن العجز مقصور على التسرع ومن وثق بجودة لسانه ظن أن في فصل بيانه ما ينوب عن عذره وأن وعده يقوم مقام حجته. قال وهب نب منبه: مكتوب في التوراة: يا ابن آدم لا تسأل الناس، وغن كنت لا بد فاعلاً فسل معادن الخير ترجع مغبوطاً ومحسوداً. ولا تسأل معادن الشر فترجع مغلوباً محسوراً. ابن حازم:

أصاب اليسارة من كده

لا تسألن المال عند امرئ

إذا أورت المال عن جده

ولكن سل المال عند امرئ

كان يقال: أبو كبسة أقوم مسنان. يقول: لا تستقرض رجلاً حديث عهد بالنعمة. إنه سيء الاقتضاء قليل النظرية مستكثر للقليل يخشى من الفقر الذي جرب وعرف. وتقول العامة في كلامها: لا يلتمس الحوائج عند من لا يأكل من مائدة أبيه.

وفي شبيه بهذا المعنى قول العجاج في رجل مدحه:

ليس بمقلوع ولا منحس

في معدن الملك القديم الكرس

أي في معدن الملك الذي قد توارثه آخر عن أول.

ولو كنت إذ أفنيت أيامي في التردد إلى فلان ووقفت أملي عليه قدمت للروية في الاتياد وأصبت مطية النجاح ما أكدي مطلبتي، ولا أخطأت فراستي. ولكنني وردت عليه بغير بصيرة فكانت عاقبة أمري خسراً، أو أكسبني ذلك نقيصة وذماً. فتبارك الله رب العالمين.

باب الإهداء إلى من يلتمس فضله

إنما يجتلب الدر من ليس بضامر على الخرز، ويلتمس المعروف من طلق الوجه واليدين. وقد حضرني مما رجوت أن يصلح لك كذا فأجبت أن أجعله تذكرة لي في خزانتك، وسبيلاً إلى إحسانك إذ أعيت الوسائل عندك إلا بك، وسهل عليك استدعاء الإحسان منك بيسير الرغبة إليك. فلا زلت غالباً على المكرمات محظوراً عن النائبات منصوراً في نوازل المهمات بقدرته من لا يعجز قدرته شيء، ولا يخفى من علمه إحسان محسن وهو فعال لما يشاء.

إنما تمتد الآمال أيدك الله نحو معادن الكرم وأهل خصوصيات السؤدد وعموميات العوارف. وهذا أعزك الله يوم احببت أن تكون لي عندك فيه تذكرة أستدعي بها منك زيادة في التقديم والإيتار والمبسط والإيناس، إذ كنت لا أنبو عن إلقاء مقاليد الأمل، والإتكال بعده لله عز وجل. وأنت حري بقبول ذلك ممتناً علي، ولي شاكر ومصطنع طائع.

باب ارتجاع الهدية ممن أملت منه فضلاً فلم تنل ذلك

للبحثري :

فإن لم تنيلوني التي قد تقدمت مواعيدكم فيها وأثاركم عندي
فردوا قوافي التي سار ذكرها بأقطار أرض الله في القرب والبعد
وشرخ شباب قد نضوت جديده كما جرد السيف اليماني من الغمد
وما أنا والتقسيم أن تلزموني وبكيت قبلي خلة القوم أو بعدي
سبيلي أن أعطي الذي تسألونني وحقي أن يجدي علي ولا أجدي
فردوا القوافي السائرات بذكركم وما حزتموه من ثناء ومن حمد

وقد كان من حقي وتكلفي الشقة إليك وتحشم هراقة ماء وجهي بمسألتك ما يوجب علي مثلك من الرؤساء
والكرماء ألا يخيب معه ذمامي ولا يبطل من جدواك حظي، فأنا الآن أرض من إحسانك برجوع تحفتي إلي إذ
كنت لا أستتشف في تجلمي من القول فيها، ولا أخجل عن ذكرها لمن يسألني عنها من إخواني، لأنها كانت مني
على سبيل متاجرة لا مكاثرة، وأن القضاء والقدر ليحولان بين العباد وبين الإرادات، وليس إليه شيء من
المشيات :

سبيل من ضمن بما لديه أن يعرف الحق الذي عليه
ولا يبيح سب والسديه لما تحرى قلع ما ضغيبه

فإنما المرء بأصغريه لو كان طول مقامي بباب فلان مما نفعتني في رفع شر عني أو اجتلاب خير ما ساءني ما
تكلفت من المشقة، وألزمت نفسي من الكلفة، وأنطقت به لساني من الشبهة والد لسه والمدح التي ليست
بجلسة فالآن إذ عاد أمني باثراً لا ترجى عمارته، وظني مخلفاً لا يوصل بحقيقته فرد مدحي الساترة وتحفتي
المستحقرة المتصغرة أولى وأحق في ذلك علي من هجن نفسه بالبخل وشأها بالمنع.

2.....	المقدمة
2.....	باب ما جاء في القناعة
6.....	باب ما جاء في المقادير
8.....	باب مدح اليأس واستدعائه
8.....	وما يعرض للطالب من الذلة والحيرة
10.....	باب راحة اليأس وعزه
11.....	باب إحماد التؤدة والرفق
12.....	باب ذم الحرص
12.....	باب ما يعرض للطالب من المكاره
13.....	باب الإجمال في الطلب
15.....	باب ذم الفقر
17.....	باب مدح الفقر
18.....	باب الحث على الطلب
20.....	باب ذم التواني والتسويق
21.....	باب ذم العجلة
22.....	باب اختيار المأمول
23.....	باب الإهداء إلى من يلتمس فضله
24.....	باب ارتجاع الهدية ممن أملت منه فضلاً فلم تنل ذلك